مقالات تربوية

الانتماء.. حياة ونماء

إعداد: أ.د/ منال عبد الخالق
أستاذ الصحة النفسية.. كلية التربية.. جامعة بنها..

الإنتماء موضوع قديم يتجدد ويفرض نفسه عندما نكون بصدد استهداف محاولات تطوير وإصلاح، أو معالجة أوضاع مجتمعية فيها عدم استقرار أو تراجع مستوى، فهل نغرد خارج السرب، وهل نتكلم عن مكون فطري أم عن آخر متعلم مكتسب؟ إذا كان الإنتماء مكونا فطريا يشبع ما بداخلنا من النرجسية وحب البقاء فهذا هو ما يفسر بحثنا الحثيث عن أسرة وجماعة ووطن، وعدم الإستغناء عن أن يكون لنا فكر ورسالة ومعنى في الحياة، وإذا كان الإنتماء فطريا فما جدوى الكتابة عن أهميته وتزكيته وإبرازه، وهل يمكننى أن أدعي محاولة إكساب المرء ما هو ملك له بالفطرة؟ هذا الذى يحمل من غير وعى منه خبرات التطور والترقي والحضارة ملايين من السنين من عمر البشرية، غير أن كل ما هو فطري وموجود بداخلنا منذ ولادتنا يحتاج إلى "تربية" و"تهذيب"، ويحتاج إلى "تنمية" و"تزكية، فنحن بشر انسانيون فقط بعد أن يتم تعليمنا وليس من غير ذلك.

إن الدعوة الحقيقية ليست أن ننتمى بل أن نعرف لمن وإلام ننتمي، ننتمى لخالقنا سبحانه وتعالى الذى بث فينا روح الحياة وأوجدنا من عدم، ومن قال فى كتابه الكريم: " إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ❖ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ" صدق الله العظيم، الأقرب إلى العبد من نفسه التى بين جنبيه، خلقه وزاده رفعة وسموا بانتمائه إلى ذاته العلية بهذه النفخة العلوية التي يمكن أن تصله بالملأ الأعلى، فإن غذينا هذا الانتماء وتزودنا بما يقويه ويدعمه عشنا في سعادة وهناء، وإن قطعناه أو فقدنا سبل الاتصال به عشنا في شقاء وحرمان، والله سبحانه وتعالى يقول: "وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى❖ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ❖ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ". صدق الله العظيم، ونعوذ بالله أن نكون منهم.

ننتمى أيضا إلى ذواتنا التى بين جنباتنا، والتى كانت الدعوة إلى معرفتها دعوة الفلاسفة والحكماء، وهي مهمة جليلة وخطيرة، بل وفيها تحد ومخاطرة، ومن هنا أيضا كانت آلهة الأساطير تعتبرها عقابا يلحق بالمذنبين، وهل معرفة الذات إلا مواجهة وجودية تسعد أو تشقى.

وننتمى إلى البشر والإنسانية التي خلقت من نفس واحدة، نعيش مع بعضنا ونقدم لبعضنا التقبل والاحتواء والاستيعاب، ومن غير ذلك يشعر الواحد منا بالحرمان والوحدة والاغتراب، لأننا في الحقيقة خلقنا من نفس واحدة ولأب وأم واحدة، ومن هنا كانت صلة الرحم سببا للبركة في الرزق والعمر والولد، أما من اختار الوحدة فقد اختار أن يحكم على نفسه بالمرض العقلي.

ننتمى أيضا إلى الأسرة التى ترعانا فتنشئنا وتكون بالنسبة لنا مصدر الإنتماء الحقيقى ونقطة الإنطلاق إلى العالم من حولنا، وننتمى إلى أرض ولدنا ونعيش عليها، والله سبحانه وتعالى يقول عنها: "منها خلقناكم" صدق الله العظيم، فهي الأصل الذي منه نتفرع، ومن هنا تأتي عبقرية الجمل التي كنا نخطها جميعنا في موضوعات التعبير في اللغة العربية: إن الوطن هو الذي أعيش على أرضه واستظل بسمائه وأتغذى من خيراته وأرتوي من عذب مائه، فهل ننتمى حق الإنتماء إلى هذا الوطن وهل نعرف تاريخه وتجربته الحضارية؟

إن الانتماء إلى الوطن ليس عضوية بل إنه تفاعل مصيري، لا ننفك منه ولا ننخلع عنه ولا نتبرأ منه ولا تسقط عنا حقوقه، ولا يمكننا أيضًا التقاعس عن أداء واجباتنا نحوه، ولا أحد مسموح له التنازل عن حقه في وطنه حتى لو تعطل وفاء والتزام الوطن بالعقد الذى بيننا وبينه.

والحقيقة أن الوطن لا يضع لنا شروطًا لكي يقبلنا فيه، مجرد أننا ولدنا على أرضه ونعيش تحت سمائه فنحن مواطنون فيه، والوطن يقول للواحد منا: هيا قدم نفسك، أنا لا أمنح ولا أحرم، أنا دائمًا متاح، وأنت من تصنع انتماءك ووطنيتك، إن شئت كنت مواطنًا صالحا نافعًا، وإن شئت كنت شيئًا آخر.

إن الأوطان لا تباع ولا تشترى ولا تعرض في المزادات أو في معارض السيارات، الوطن هو الوطن حتى لوكانت دروبه ومسالكه تراب وطين، ونحن نحبه ليس لأنه قدم كذا وكذا أو العكس، الوطن هو من يقدم لنا حلم الانتماء وماهية الحرية الحقيقية التي تنتشي بها قلوبنا الشابة، الوطن جدير أن أحبه لأنه مثل أمي التي لم أختر أن تكون هي أمي، الوطن انتماء ونماء وأرض وسماء.

وللإنتماء مكونات أو أبعاد أساسية يكتمل بها ومنها العضوية والاندماج والانخراط الذى يحقق للفرد شعوره بالهوية والسلامة النفسية، وهناك أيضا التكامل وتلبية الاحتياجات والمشاركة الإيجابية والتعاون والمثابرة، وتحمل المسئولية، والمبادأة وشجاعة اتخاذ القرار والإيجابية في مواجهة المواقف الصعبة، وكل مايعطى الفرد مكانة وهيئة تدعم وجوده وتؤكد ذاته، ولايتحقق كل ذلك إلا بالالتزام بالمعايير المحددة للسلوك وأنظمة الرموز المشتركة، ثم الإيثارية التى تعلى معاني الغيرية والاهتمام برفاهية الآخرين في مقابل الذاتية والأنانية، والتعاون وتضافر الجهود لتحقيق الأهداف، وهو أصعب في تعلمه وفي تطبيقه من المنافسة، لأن فيه استمتاعا بالأنشطة ومشاركة في الانجازات فى تدفق نفسي واستغراق واستمتاع وتفان وثقة.

الانتماء حاجة إنسانية أساسية للفرد وللمجتمع لأن فيه تبادل خبرات، وفيه تقارب وثقة وتقدير، وفيه دعم ومساندة، وفيه تناغم وتآلف وتكامل ورضا، وله أشكال مرتبطة بالتنشئة والتعليم والتدريب، وهو قوة دافعة ومشاركة ومثابرة وتحمل للمسئولية وتسامح ومرونة، ومرتبط بوجود مثال وقدوة، الانتماء إدراك للتشابه بيني وبين الآخرين، وارتباط متبادل والتزام من أجل الحفاظ على هذا الارتباط واستمراره، والانتماء فرصة للعب أدوار حياتية فعلية في ضوء المعرفة بنماذج القدوة الحسنة في الحياة، ومرتبط بالخلو من المرض وبتحقيق السعادة، كما أنه تأكيد للذات ودعم للتوجه المنطقي العقلاني في الارتباط بمن يشبهني ويشاركني المصير الحياتي الواحد، الانتماء ليس تعصبًا ولا انتصارًا

مطلقاً لمن انتمي إليهم بل فيه تقبل للآخر واعتراف واحترام لوجوده وحقوقه واندماج روحي في الإنسانية كلها دون تطرف أو فرض رأي.

وقبل التطرق إلى خطوات محددة لتنمية الإنتماء واستثمار روحه الوقادة، نرصد واقع الحال الذى يتم فيه حاليا إعادة تشكيل مفهوم الأسرة والابتعاد عن صورة الانتماء الحقيقي، فقد أصبحنا بإرادتنا ورغمًا عنا لا نتحاور ولا نتناقش، وأصبحت الملامح الأساسية في حياة بعضنا هي الشرود والبرود والإهمال والفقر العاطفي، ومازالت الآلة الجهنمية تعمل على تفكيك الأسرة وهدم شخصية الشباب، فنحن لبسنا قشرة الحضارة وظلت عقولنا غير متحضرة.

ولأن الحضارة ليست هي السيارات والمطاعم والهواتف، فلقد استغرقنا في مادية ستؤدي بنا إلى الافلاس الروحي، فلم نعد نتكلم عن روح الدين ولا نقدم لأبنائنا معنى الوسطية والخيرية والنفع العام والسمو والتسامي، وضاع منا أهم رافد روحي في الإسلام وهو التصوف، وعندما تضيع الروحانيات يموت القلب تدريجيًا في متع الدنيا، أو يتحول إلى الإرهاب والتطرف، ونحن الآن كمجتمع وكبلد نحارب في أكثر من جهة، نريد الاستقرار والبناء والتنمية والنهوض، ونريد انقاذ شبابنا، ولكن إيقاع الحياة أسرع مما تبذله كل مؤسسات التربية ومؤسسات العبادة والدولة، فالوعظ والارشاد وحده لا يكفي، والقراءة لم تعد لها قيمتها ولا أهميتها، ودور العبادة ليس لها الحضور والمكانة السابقة، الجميع حاضر على مواقع التواصل وكأننا جنود محاربون، لكننا جد غائبون عن أسرنا وأولادنا وبلادنا.

أصبح شبابنا مجرد أوعية يتم تعبئتها دون السماح لها بالفكر الناقد أو المبدع، دون أن تستطيع الفهم والتحليل والتفاعل، حتى وسائل الاعلام ومواقع التواصل حدث ولا حرج، وأكبر دليل على ذلك الشائعات التى يتم الترويج لها فتحدث أمواجا من الحراك وتلعب بعقول الناس.

ولمواجهة كل ذلك ينبغى العمل على ربط جيل الشباب بأسرته وهويته الدينية في مرحلة باكرة جدًا، وغرس مبدأ الروابط المشتركة والتأكيد على الحقوق والواجبات، والثقة في جيل الشباب الواعي الذكي المثقف أنه جيل كفاح وجد واجتهاد، وقدرة على التغلب على الصعاب دون لجوء للعنف والتطرف والإرهاب، وبذلك نضمن تجاوزهم لذواتهم وربطهم بأوطانهم.

كما ينبغى أيضا تحقيق شراكة بين الأسرة والمدرسة تضمن دعم جوانب الشخصية وتنميتها وتكوين اتجاهات إيجابية نحوها: الإحترام، التعاون، الديمقراطية، وإدارة مناقشات وحوارات عن قضايا الوطن والمشاركة قولا وليس فعلا، كما يجب أيضا التأكيد على التعاون بين الجامعات وكل مؤسسات المجتمع الأخرى كالأسر والمدارس والنوادي والمساجد ومراكز الشباب ومراكز الثقافة في ضوء خطة قومية تركز فيها كل الجهات على الانتماء، ودعمه وتنميته والتدريب على العطاء والبذل، وحرية التعبير وإبداء الرأي والعمل في روح الفريق.

ويلزم أيضا الارتقاء بالذوق العام والمظهر العام والذي لا يتحقق دون رقي معيشى وتقدم اقتصادي ومعدلات إنتاج أعلي، وخطط تنمية ناجحة، ورفاهية اقتصادية وأسواق مفتوحة

وسلع تنافسية، وتكريس الجهد فى التركيز على برامج التوعية والإرشاد لترسيخ المعانى الانسانية، ومعالجة صراع الأدوار.

كما يلزم الاعتراف بالثقافات المختلفة والسياسات المختلفة، والاقتصاديات المختلفة، والمشاركة في دعم السلام الدولي وإدارة الصراعات عن طريق اللاعنف، وفي نفس الوقت دعم وتعزيز الثقافة الوطنية والمفاهيم الوطنية وجغرافية وتاريخ الوطن، ومن الواجب الانشغال بقضايا مصيرية، فنحن نعيش في لحظة فارقة والموجة عالية، والانتماء في حقيقته خدمة للإنسانية، يقدمها كل إنسان لأخيه الإنسان من خلال التقبل والاستيعاب في مسار شريف لتحقيق نتائج نبيلة تسعد الإنسان وتحميه من المرض والاضطراب فالعلم وحده لا يفعل ذلك، مع العمل على إتاحة المعلومات من خلال خطة قومية يحصل من خلالها كل أبناء الوطن على المعلومات، ويناقشون مشكلات وطنهم وتحديات مجتمعهم، لأن الانتماء ليس معناه أن تجلس في مكانك وتعيش حياتك وتقول: "وطني كم أحبك وأنتمي إليك"، وفي هذه الخطة القومية يجب أن تتعاون المدارس، والجامعات ووسائل الاعلام وكل مؤسسات الثقافة للعمل على حدوث مواجهة فكرية حقيقية من خلال دعاة معتدلين وشباب واع لا ينسحب ولا يكتئب، بل شباب صامد لا يعاني من التفكك الأسري ولا يستسلم للغزو الفكري ويرفض الهشاشة والهوية المتكسرة، ويرفض أيضًا الذيوع والشهرة على حساب الوطن.

أما الحديث عن البطالة كحجة للتنصل من الإنتماء للوطن فليس حديثا لطلب البراءة من تهمة غير معلومة أو للدفاع عن ذنب غير مفهوم، وإذا كانت الإحصائية فى كتيب مصر فى أرقام الصادر عام ٢٠١٨ تخبرنا أن لدينا من ٢٠١٣- ٢٠١٨ مليون وربع مولود كل سنة، ومليون وظيفة مطلوبة سنويا، أن نسبة البطالة فى ٢٠١٧ وصلت ١٢.٢٪، منهم ٨٨٪ حملة مؤهلات عليا جامعية ومافوقها، فإن خبراء الاقتصاد يفسرون ارتفاع نسبة البطالة رغم وجود مشروعات اقتصادية كبرى تقيمها الدولة بأن مايحدث فى الواقع هو أن الشركات العالمية الكبرى التى تشارك فى هذه المشروعات تشترط نسبة تشغيل لعمالتها الوطنية على حساب أولاد البلد، وكذلك تقليص الدولة للتعيينات فى كثير من المؤسسات الحكومية، هذا إلى جانب غياب برامج تدريب الكوادر.

ولكي لا تكون أزمة البطالة حجة لضعف الانتماء ينبغى العمل على ما يلى:

- التوجيه والإرشاد المدرسى والأكاديمى المبكر لطلابنا لتعليمهم كيفية دراسة سوق العمل وحاجة المجتمعات إلى تخصصات محددة، وهذا يكون ببرامج مميزة وتخصصات حديثة تواكب أحدث ماوصل إليه العالم.
- تفعيل مشاركة الشباب سياسيًا ومجتمعيًا في قضايا وطنهم، وتشجيعهم على التفكير الحر والتعبير الحر، وفى هذا الصدد يلقى تقرير مستقبل الوظائف الصادر عن المنتدى الاقتصادى للعام ٢٠١٦ الضوء على واقع أن أغلب أنظمة التعليم ما زالت تقدم تعليما وتدريبا منعزلا سماه "الانقسام الثنائى بين العلوم والانسانيات"، وأنه بحلول ٢٠٣٠ ستكون هناك ثلاث مهارات متحكمة فى التوظيف هى: مهارة حل المشكلات، مهارة التفكير النقدى، والابداع.
- كل أصحاب العمل اليوم يعرفون أن الشهادات الجامعية ليست بأهمية الخبرة والتدريب وبرامج تنمية القدرات والمهارات والعلاقات الإنسانية، ومهارات اتخاذ القرار ومهارات

القيادة ومهارات حل المشكلات، ولابد أن يشارك رجال الأعمال والشركات والاستثمارات فى تفعيل سياسات تشغيل الشباب وبرامج تنميتهم، وبرامج التدريب التحويلي لتدريب الشباب على مهارات وتخصصات جديدة، والتدريب المهني.

- تشجيع مشروعات الشباب التي تقوم على سياسات الاقتراض والدعم والتنمية بالتعاون مع مؤسسات اقتصادية كبرى ورجال استثمار وأعمال لمحاربة الغلاء ونهب المال العام، بدلا من الدخول فى حروب قديمة تتجدد لاستكمال مسلسل إلهاء مقصود.

إن زيادة الإنتاج ومواكبة العالم المتقدم يضمن لنا فرض الوجود وتحقيق الذات، ويضمن لبلادنا الرقى والإزدهار، لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.